الحجاب : التصور والتمثلات

*كرمين نصيرة

مقدمة

من الملاحظ أن غنى أدوار اللباس الثقافية، قد جعلت منه مادة حيوية في تتبع التطور الثقافي والاجتماعي للإنسان. بدا هذا جلياً حينما ظهر هو الآخر خاضعاً لديناميكية التطور والتجدد ضمن ديناميكية حركية المجتمع. فكثيراً ما كان اللباس معياراً قيميّاً، للمجتمعات في تحديد هوياتها بدلالاته الاجتماعية، حتى أنه يكاد يكون الوجه الثاني لأيّة هوية، كونه يستطيع أن يضع لها حدوداً ثقافية ورمزية. فالفرد من خلال لباسه، يعلن تصوراته الثقافية والدينية والاجتماعية إلى درجة تمركزه على مجمل ثقافته. فاللباس بذلك، يشير إلى أصله الهوياتي، وإلى طبيعة انتمائه الديني وحتى الطائفي. كما يعبر عن ذوقه الجمالي وحتى إلى تصوراته المستقبلية والاستشرافية، وبالتالي أضحى يمثلا رمزاً وبعداً ثقافياً، منفذاً متغيراً لتبصر ما هو ثابت وما هو متحول، في الإنسان ومنها ثابت الهوية.

* دكتوره في علم الاجتماع/ إشراف أ.د عمار يزلي.2017

الحجاب : التصور والتمثلات

كرمين نصيرة

تعود جذوره الثقافية والدينية في المجتمعات العربية إلى" الحضارات التي امتد إليها الفتح الإسلامي، فنتج عن ذلك الخليط حضارة توحدت فيها اللغة والدين وأصبح لها شخصية مميزة"[1]، بهذا المعنى، أصبح اللباس، يحمل ملامح وسمات مشتركة تقرب بين هذه الدول وتدّل على خصوصياتهم، بما فيها هويتهم الثقافية والدينية[2]. وصار ما يسمى اليوم بـ"الحجاب"، لباسا متعدد الرموز والوظائف من ألبسة متعددة الوظائف والرموز هي الأخرى: فهو، من خلال حمولته التميزية، صار معبراً عن نمط تفكير وسمة هوياتية وخصوصية فردية في الجماعة، وجماعية في الفرد في آن واحد!، عنواناً معبأ بكل أشكال التراكمات التاريخية الثقافية، والتي من شأنها أن جعلت منه موضوعا يصعب تحديده ضمن مجال معين أو محدد. فقد تحول اللباس من وظيفة محددة (الوقاية والستر والتستر)، إلى وظيفة ورمز. رمزاً، منفتحاً على جميع الممكنات (قابل للتأويل والفهم). وما يثيره الحجاب اليوم من أسئلة كبرى على جميع المستويات (الدينية، الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية، وغيرها) دليل قاطع على أنه لازال موضوعاً حيوياً للمعرفة، ومازالت الأسئلة بخصوصه لم تحسم بعد.

ما يؤكد هذا الطرح، تلك الضجة الكبيرة التي أحدثها هذا اللباس في المجتمعات الغربية، لما أصبح يشكله من" تهديد" و"استفزاز" هوياتي للهويات الدينية والثقافية الأخرى، نتيجة لانتشاره خارج مناطقه الجغرافية المعتادة، بدأ قديماً بغطاء الرأس (*le foulard*)، ليتحول إلى الحجاب "كرمز ديني" متناقض مع "العلمانية"، ثم إلى "النقاب". (وقبله، كان "الحائك" المعبر عن التخلف واستعباد المرأة في الجزائر أثناء الاستعمار، ومثلها في تونس والمغرب). على هذا الأساس، سنحاول في دراستنا إظهار القدرة الكبيرة التي يمتلكها الحجاب في تعدد الأبعاد والتمثلات، والرمزية التي ينفرد بها، كما سنشير إلى آليات وديناميكية التأثيرات التي ينتجها مع باقي المجالات الاجتماعية الحيوية (الاقتصادية، الموضات الثقافية...) .

يمثل فالحجاب أحد الرموز المحددة للهوية الدينية، ولمختلف الانتماءات داخل هذا الكل الديني الإسلامي، وفي ذات الوقت اختلافاً وتنوعاً في الأسباب التي أدت إلى ارتدائه. وبقدر ما تعدد واختلفت وتنوعت التغيرات في شكله، وهندسته، وتفصيله ورسمه(*le*

désigne) إلى درجة أصبح الأمر يتطلب دراسة وتفكيك شفراته، بقدر ما يزال محافظاً على اسميته وتعبيراته الهوياتية الإنتمائية.

1. فما هو الحجاب؟

يدخل الحجاب ضمن الألبسة التاريخية، المرتبطة بتطور أنماط الهندام النسوي، مع الثبات! فهو بذلك قد تغير مع الزمن، فيما بقي محتفظاً بسماته العامة. فهو من حيث البعد التاريخي، قد يكون أبعد من التاريخ الإسلامي نفسه! وتكون أقدم إشارة تاريخية له، قد جاءت في العهد القديم عند العبرانيين زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث" يذكر في سفر التكوين عند زواج رفقة من إسحاق أنه رفعت رفقة عينيها فرأت إسحاق فأخذت البرقع و تغطت"[3].

كما ورد أيضا في "القانون الآشوري الذي فرض على المرأة ارتداء الحجاب (دون أن يكون يحمل نفس الإسم، بل لباساً يفيد "الستر" و"التغطية" أي "يحجب"..كان هذا.. في الأماكن العامة. كما عرف عند بعض الشعوب كالرومان والبيزنطيين"[4]. وكان غطاء الرأس، يمثل علامة التبجيل والاحترام في حضارات الشرق القديمة، حيث وضعه الرجال والنساء على سواء. كما كان علامة دينية أيضاً، إذ لا تجوز الصلاة سابقاً برأس مكشوف، ويتعلق الأمر هنا عند كل الأديان السماوية وحتى بعض تلك كانت تميل نحو الوثنية، وهذا يدل على رمزية الرأس، الذي لا يزال محل اهتمام وعناية وستر وتغطية إلى اليوم لدى الذكور والإناث وعند رجال الدين اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء.

أما في المجتمع العربي والإسلامي، لم يرد ذكر الحجاب لغة، في النص القرآني والسنة. بل جاء ذكره لدى المحدثين، معتبرين في ذلك أنّ لباس المرأة هو كل لباس يحجب الجيوب. "والجيوب هي جمع جيب وهو فتحة الصدر من الثوب"[5]، إذ اعتبره المشرّعون الإسلاميون لباساً شرعياً للمرأة، استناداً للآيتين الكريمتين من سورتي النور والأحزاب"**وليضربن بخمورهن على جيوبهن**"(النور/31)، وقوله تعالى:"**يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين**"(الأحزاب/59)، وكان لهاتين الآيتان سبب خاص في النزول، غير أن الأئمة والمجتهدين والعلماء والفقهاء يشيرون إلى أن العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب، بمعنى أن

الحكم الشرعي هو حكم عام لكل المسلمين في كل زمان ومكان، وهو حكم الله الأزلي ولا ينحصر بالسبب الذي أنزل من أجله وزوجات النبي، هن القدوة والأسوة والمثل الأعلى للمسلمات. وهناك أحاديث واردة في هذا السياق تؤكد صحة السلوك الإسلامي في الحجاب نذكر منها:

"عن أبي داود، عن عائشة، أن أسماء بنت أبي بكر- أختها- دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في لباس رقيق يشف عن جسمها، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا"- وأشار إلى وجهه و كفيه"[6].

يتكون الحجاب عادة من قطعتين تتمثلان في"خمار وجلباب، فالخمار هو غطاء الشعر والنحر، والجلباب هو الثوب الذي يغطي الجسد وكلاهما مهمته ستر المفاتن الأنثوية عن أعين الرجال غير المحارم"[7]. في حين هناك من يضيف قطعة ثالثة والتي هي غطاء للوجه، ولها عدة أسماء حسب تنوع المناطق. فيطلق عليها أحيانا: القناع أو البرقع، وأحيانا أخرى، البكرة أو البطولة وهي مشتقة من لفظ (البطولا Batola) الفارسي الذي يرجع إلى جذور هندية سنكريتية قديمة[8]، وتسمى في المجتمع الجزائري بـ "اللثام" أو"العجار". والبرقع، وهي عبارة عن قطعة قماش تُثبت في موضع العينين حتى تبصر منهما المرأة، ويوجد بالبرقع شريطان تشدهما المرأة ويعقدان خلف الرأس.

2. الحجاب في المجتمع الجزائري

لم يظهر الحجاب في مجتمعنا بشكل كبير، إلا مع بداية التسعينات وظهور التيار السلفي، وما سمي آنذاك بالصحوة الإسلامية والهوية الإسلامية. فقد فرضته الإيديولوجية الدينية في أواخر القرن الماضي، وبذلك يعد لباساً مستحدثاً، عرف انتشاره خلال حقبة معينة، ضمن ظروف اضطرارية، مما جعل المجتمع على دراية أكثر بالحجاب، حتى أن العائلات فرضته لباساً على بناتها في سن معينة. وهذا ما يبينه الجدول التالي:

جدول رقم(01): المستوى الدراسي لارتداء الحجاب عند مبحوثات عينة الدراسة المتكونة من 60 طالبة جامعية مقسمة بالتساوي لفئتين المتحجبات وغير المتحجبات.

الإجابة	ت	%
من الابتدائي	-	-
من المتوسط	-	-
من الثانوي	17	57
من الجامعي	13	43
المجموع	30	100

يظهر من خلال الجدول أن أكبر نسبة هي 57%، وتمثل المستوى الثانوي الذي احتجبت فيه المستجوبات، في حين نسبة 43% تمثل اللواتي احتجبن في المستوى الجامعي. وهذا يعني أن ارتداء الفتاة للحجاب عند بعض الأسر الجزائرية، مرتبط بمرحلة عمرية معينة، وغالبا ما تبدأ بسن المراهقة، وسن البلوغ من حيث بداية ظهور علامات الأنوثة، ولهذا غالبا ما يشترط الأهل الحجاب على الفتاة مجرد أن تبلغ، في مقابل إتمام دراستها وكأنه تعاقد يبرم بين العائلة والفتاة.

جدول رقم (02) : دوافع ارتداء الحجاب عند المستجوبات

الإجابة	التكرار	النسبة
الأسرة	13	%43
دعوة الصديقات	05	%16
تقليد	02	%07
اقتناع صرف	02	%07
لإخفاء المستوى الطبقي	08	%27
المجموع	30	%100

توضح لنا نسبة 43 % من الجدول أنّ ضغط الأسرة وعملها على تحجيب الفتاة، يعكس تسلط ذكورها على حرية الاختيار النساء. فأغلب الآباء يمارسون نوع من السيطرة على أبنائهم منذ الطفولة بأسلوب ترويضي، والتي من خلالها يجعلون الفرد ينقاد لتنفيذ الأوامر ومنه الطاعة دون تركه يعبر عن رغباته وأرائه. والتي يعتمدون فيها في الغالب على عنصر التخويف إلى جانب العقاب، فالعائلة والمجتمع تملك كامل التأثير، على الفرد الذي يقوم بالاستجابة لمتطلباتهما، وبذلك يكون قد استجاب "لحاجات الكل الاجتماعي، الذي يلقنه نسق الأفكار والأحاسيس المشتركة، العادات والتقاليد، السلوكات والممارسات الأخلاقية التي تفرضها الجماعة التي ينتمي إليها"[9].

في حين مثلت نسبة 27% من المستجوبات اللواتي تحجبن بدافع إخفاء المستوى الطبقي. لأن ضغط الحياة الاجتماعية بتكاليفها الباهظة، ولد صعوبة لدى الأهل في تلبية جميع متطلبات الأسرة، والتي منها ملبس الأبناء. فلذا يلجأ الأهل إلى العمل على احتجاب الفتاة، وبهذا لا يصبح دافع ارتداء الحجاب دينيا فقط، وإنما للعائلة والظروف الاجتماعية دور في ذلك.

كما أن لدعوة الصديقات دافع في ارتداء الحجاب وذلك ما توضحه نسبة 16 % في الجدول، فانتماء الفرد إلى جماعة ما لابد وأن تتوفر لديه بعض من القواسم المشتركة، التي يشاركهم إياها كبعض المواهب أو نفس التصورات، أو حتى لباسا معينا، حيث يقول هنا غي روشيه في كتابه "*L'action social*":"أن الانتماء إلى جماعة يعني مشاركتهم الأفكار والقواسم المشتركة"[10]. وأخيراً مثلت نسبتي7% لكل من المستجوبات اللواتي اخترن الحجاب عن اقتناع، وكذا تماشياً مع العصر.

3. الحجاب العصري واختلاف تمثلاته

بعدما بدأت الإيديولوجيات الدينية تضعف وينحصر مدها في الأوساط الاجتماعية مع مطلع القرن الحالي، تغير شكل الحجاب وطرأت عليه بعض التعديلات بهدف عصرنته، فأصبح يُهتم فيه للبعد الجمالي والثقافي، وذلك مع انفتاح المجتمع الجزائري على باقي المجتمعات العالمية الأخرى، عن طريق وسائل الإعلام(الفضائيات) والانترنيت والأسواق

العالمية، فالتغيرات الثقافية والاجتماعية التي طرأت في العالم بصفة عامة، أثرت بدورها على وعي الفرد وطريقة تفكيره، وكذا أسلوب لبسه.

اختلفت أشكال الحجاب ولم يعد محصوراً في جلباب وخمار، فجرت تعديلات في شكله متأثرة بما فرضه العالم المعاصر من شروط أصبحت أساسية في اللباس، وهي مقاس الجسم والاهتمام للذوق الفني والجمالي. وبهذه التغيرات وكأن الفتاة المتحجبة أرادت المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة في لباسها، كي لا تتخلى عن موروثها الديني الحضاري، ولا تهمل المعايير الجمالية التي تفرضها الموضة والأزياء العصرية، فقامت بالحفاظ على شكلية الحجاب لكن بأسلوب عصري، ولاقى هذا الشكل الجديد رواجاً واسعاً في المجتمع، وأصبح يطلق عليه اسم الحجاب العصري. ما دفعها لذلك ما هو إلا اقتناعها، بأنها ليست مجبرة على التقيد بمواصفات دقيقة في حجابها مما يعني أنها" ليست ملزمة بتصميم بعينه، ولا بلون معين، ولا بقماش مخصوص، فهي مخيّرة في كل ذلك، حسب ما تسمح به أوضاعها الاقتصادية، والمتاح في الأسواق، وما يمليه العرف والعادة، وكذا الانفتاح على تجارب الآخرين والملكات الإبداعية للمصممين أو المصممات للملابس"[11]. ولذلك جعلت منه لباسا "عمليا" يتماشى مع الحياة اليومية، التي أصبحت الحركة والسرعة فيها ضرورية.

فأصبح مطلب المرأة الرئيسي، البحث عن أناقة حجابها وعصرنته. ليدّل على هويتها الدينية والثقافية معاً، خاصة بعدما أصبح هذا الأخير، وسيلة تحررها وضمان مشاركتها الفاعلة في الحياة العملية. وهناك من لا يجد في التعديل في شكل الحجاب ما يشوه الرمزية الدينية والإنتمائية التي يمثلها، بل إضافة إلى هذه الخصوصيات فهو يعكس الخلفية الثقافية لمرتديته، التي تحاول أن تُظهر من خلال لباسها آفاقها المستقبلية، وتطلعاتها ومدى مواكبتها للحظة، فاهتمامها بلباسها يعتبر من ضروريات العصر، إذ ينادي بواجب فك الحيز والسجن الذي وضع فيه الحجاب، بهدف مواكبة التغيرات وضمان استمراريته، ولكي لا يظهر كقطعة بالية وسط ديكور حديث، ويعطي مثالاً عن زوجة أردوغان التي تعتمر غطاء الرأس، ولكن لا يبدو ذلك كتنفيذ لحكم شرعي أو لفرض ديني، بقدر ما هو من علامات الهوية لا أكثر[12].

فالمرأة التركية المسلمة، لم تتخلى عن هويتها، ولم تتجاهل الحداثة، وإنماّ عملت بمبدأ واضح وهو الاستغناء عن"منطق التقليد الأعمى للماضين، لأن ذلك ينتج هوية خاوية

أو كاريكاتورية أو عدوانية، ولا هي اتبعت منطق التقليد الساذج والحرفي للمحدثين، لأن ذلك ينتج حداثة فقيرة، هامشية ممسوخة"[13]، معتمدة في ذلك على فكرة أساسية، تمثلت في أنه ليس ضروريا أن يتزين الفرد بزيّ القدامى كي يثبت هويته. وبالتالي فليس شكل الحجاب هو الذي يثبت الهوية، بقدر ما يمثله غطاء الرأس، الذي أصبح رمزاً ضمن رموز الهوية الأخرى"مثل الصليب والهلال...، لأن الثقافة لها أهميتها ولأن الهوية الثقافية هي الأكثر أهمية بالنسبة لمعظم الناس"[14].

- **جدول رقم (03)** رأي الشباب في الحجاب العصري

الإجابة	المتحجبات		غير المتحجبات	
	ت	%	ت	%
موضة	10	33	11	36
تقدم	02	06	06	20
تقليد	-	-	-	-
أصالة ومعاصرة	13	43	12	40
تخلف	02	06	-	-
حالات أخرى	03	10	1	3
المجموع	30	100	30	100

نلاحظ من خلال الجدول أن 43% من المتحجبات، و40 % من غير المتحجبات يجدن الحجاب في شكله الجديد يمثل الأصالة والمعاصرة في الوقت نفسه. كما يصرحن أنه لم يعد هناك ما تعانيه الفتاة المتحجبة الآن، على عكس ما سبق كانت تجد صعوبة في اقتناء حجابها مراعية الشكل المحدد واللون المعتاد، فحاليا أصبحت السوق الجزائرية تتوفر على مختلف الماركات العالمية، وعلى الملابس المقلدة لها، خاصة منها المنتجات الصينية والتي تباع بأثمان في متداول ذوي الدخل المتوسط وهذا ما زاد من تحفيز المتحجبة لارتداء هذا الشكل

العصري للحجاب المواكب للموضة. التي تدخل ضمن المواضيع الرئيسية التي يهتم لها الشباب حالياً.

مما سبق، يتضح لنا مدى أهمية اللباس في حياة الأفراد ومدى تأثيره في نفسيتهم. ولعل هذا ما جعل العالم النفساني جوفمان Goffman، يجد في اللباس ما يؤكد ذاتية الفرد وذلك بتأكيد تأثيره على الآخرين"[15]، كما يؤكد أيضا ستون(stone) على"أهمية المظهر في التفاعل الاجتماعي لأن المظهر يعني تمييز الشخص عن الآخرين أو تمييزه عن شخص آخر. أما واكس Wax فيقول في دراسته للموضة: "أن الملابس الأنيقة تسبب الراحة النفسية لمن يرتديها"[16]، فشكل اللباس يزيد أو ينقص من ثقة المرأة في نفسها، لأنها تتأثر بتقييم الذاتي مظهرها، إذ "كلما شعر الفرد أنه يرتدي ثياباً أنيقة كلما شعر بثقته بنفسه وثقة الآخرين فيه"[17]، ولهذا نجد شابات اليوم كافة تتطلعن للاهتمام بأناقتهن، على عكس وقت مضى، وعلى العموم أصبح الفرد يهتم كثيراً لأراء الآخرين.

ما حدث من تغيرات على الحجاب دليل ثابت على تأكيد قدرات ودرجة الوعي ونضوج الفتاة وتلقحها بما وصلت إليه الثقافات الأخرى، التي ترجمتها من خلال شكل حجابها الذي لم يعد محصوراً في شكله الكلاسيكي(جلباب وخمار) يغطيان جسمها ويستران مفاتنه، وإنما تعديل كلي، فالجلباب صار غالباً ما يعوضه لبس سروال- الجينز- أو التنورة أو الفستان المصمم حسب مقاسات الأفراد. وحتى الخمار تغير شكله عن السابق، فبعدما كان يسدل لتغطية صدر وظهر المرأة صار يأخذ أشكالا متنوعة ومختلفة، كأن يلف الرأس وتجمع باقي أطرافه لتشكل وردة في الجانب، أو كأن يشد من خلف العنق ثم يشد من الأمام الذي يسمح بظهور القرطين إذا وضعا. لكن رغم كل هذه التغيرات التي طرأت على شكل الحجاب، واستطاعت أن تخلق التنوع فيه، إلا أنها دائما حافظت على تواجد الخمار. والأهم من ذلك استطاعت أن تحافظ على اسمية الحجاب، فكل طالبة تعتمر خماراً سنقول عند الإشارة إليها تلك المتحجبة، دون أن نتطرق إلى شكل الحجاب. فيبقى الحجاب يسمى حجابا سواء كان حجابا شرعيا أو حجاباً عصرياً.

كما يبقى تمثله الديني أقوى من تمثلاته الثقافية والاجتماعية الأخرى، نتيجة توفر أسس دينية نصت عليه. فلو حتى أن صاحبته ليست متدينة إلا أنها بالحجاب أمام المجتمع

والعالم الخارجي سيشار إليها اسميا أنها واحدة من المسلمين، فهو بذلك سيظل رمزاً من رموز الهوية الإسلامية.

الهوامش:

1- شكري مؤمن نجوى، هنري جرجس سلوى، التراث الشعبي للأزياء في الوطن العربي، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2004، ص 12.

2- سليمان أحمد كفاية، فرج ميراهان، فلسفة الأزياء من منظور النقد الفني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2009، ص245.

3- الجوهري محمد، الفلكلور العربي، بحوث ودراسات، المجلد الأول، جامعة القاهرة، ط1، 2000، ص 163.

4- المرجع نفسه، ص 164.

5- القرضاوي يوسف، الحلال والحرام في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط11، 1977، ص 133.

6- المرجع السابق ، ص 130.

7- الأحدب ليلي، عالم بلا نساء، مركز الناقد الثقافي، دمشق، سورية، 2008، ص89.

8- الجوهري محمد، الفلكلور العربي، بحوث ودراسات، المجلد الثاني، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ط2، 2006، ص163.

9- Durkheim (E) ,Education et sociologie, El Borhane, Alger ,1991, p 16

10- Rocher (G), L'action social, ed HMH, Paris, 1970, p134

11- الأبيض أحمد، فلسفة الزي الإسلامي، دار المعرا ج، دمشق، سورية، ط1، 2010، ص146.

12—حرب علي، تواطؤ الأضداد، الآلهة الجدد وخراب العالم، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 259.

13- المرجع نفسه، ص 251.

14-هنتجتون صامويل، صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، دار الكتب المصرية، 1997، ص36.

15- سليمان كفاية، فرج ميراهان ، مرجع سابق، ص 133.

16- المرجع نفسه، ص134.

17- النصر ثريا، أزياء النساء في العصر العثماني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2000، ص6.